

غريتا نوفل*

سامية حلبي: التحدي اللوني في زمننا

شهدت بيروت في آذار / مارس الماضي حدثاً ثقافياً عالمياً تمثل في معرض استعاديّ: "خمسة عقود من الرسم والابتكار" للفنانة التشكيلية الفلسطينية سامية حلبي التي بدأت مسيرتها في ظل أكبر ثورة تشكيلية في القرن العشرين وهي التكعيبية. وقد حاولت الفنانة المولودة في القدس في سنة ١٩٣٦، من خلال البعد الرابع في أعمالها، أن يشارك المشاهد المتلقي في ولادة لوحاتها الفنية.

تشكيلية في القرن العشرين كونها أعادت النظر في المعايير اللونية، وهي تُعتبر ردة فعل ضد مسيرة الانطباعية الطامحة إلى ترجمة المظهر العابر للطبيعة وانزلاق الضوء في لحظة معينة؛ والتكعيبيون أعادوا النظر في تركيبة اللوحة عبر الخطوط المديدة، وموازة هذه الخطوط التي تشكل إيقاعاً لمساحة اللوحة الفنية مع المحور الأساسي للوحة. كما اشتغلوا بالضربات الموزعة على درجات لونية، الفاتحة منها، والمعتدلة والقائمة، وخصوصاً أن هذه الدرجات اللونية هي التي تضيف على اللوحة بُنياتها.

وهكذا تكون سامية حلبي المتأثرة بأعمال كاندينسكي وبول كلي ومندريان، قد بدأت مغامرتها مع اللوحة في ظل أكبر

تفتتح الفنانة التشكيلية الفلسطينية سامية حلبي المولودة في القدس في سنة ١٩٣٦، معرضها الاستعادي "خمسة عقود من الرسم والابتكار" في مركز بيروت للمعارض، بلوحتين صغيرتي الحجم، وهما الأصغر حجماً في المعرض (٢٦ X ٣٧)، ويعودان إلى بداياتها في ستينيات القرن الماضي. وأتصور أن اللوحتين المذكورتين تختصران سيرورة عملها، علماً بأن إحدهما تجريدية، والأخرى تكعيبية، وأن المدرسة التكعيبية هي التي مهدت للتجريدية الصافية. وقد شكلت التكعيبية أكبر ثورة

* فنانة لبنانية تشكيلية، وتدرّس تاريخ الفن في الجامعة اللبنانية - الأميركية (LAU).



القرن الماضي، بفضل رحلاتها العديدة في العالم العربي وتركيا، واطلاعاها على الفن الإسلامي الذي تُعدّ العلاقة فيه بين الحجم والمسطح أمراً أساسياً. وقد ترجمت بصرياً إشكالياتها هذه بالعمل على الخطوط اللولبية والمائلة، وهذه الخطوط لم تكن سوى خطوط الطيران التي اعتمدتها سامية حلبي في رحلاتها بين بيروت ويافا عبر البحر الأبيض المتوسط. وتوصّلت الفنانة بفضل السفر إلى فهم عملية التوسع العمراني للمدينة، وانعكس ذلك في رسوم توضيحية صغيرة الحجم موجودة في المعرض، وتتعلق بالأنهار والجسور التي تصبح خطوطاً في أعمالها. أمّا الأشكال الهندسية فوليدة التقاطع بين النهر والجسر على زاوية ٩٠ درجة، ذلك بأن عملية النمو المتعاظم للمدن صارت هاجسها الأكبر. وفي هذا الإطار

ثورة تشكيلية في القرن العشرين، وهي التكعيبية، إنما من دون الخوف والحذر في عملية التجريد! ومن هنا نفهم مسيرتها التجريدية وطرح إشكالياتها الفنية في كل مرحلة، مع القدرة على الإجابة من خلال سلسلة من اللوحات. وكانت الإشكالية الأولى التي واجهتها في ستينيات القرن الماضي، هي ترجمة البعد الثالث أو العمق عبر بناء علاقة بين الألوان، الأمر الذي يُعتبر مسألة أساسية في رصد الواقع عبر عملية التجريد. أمّا الإشكالية الثانية، فكانت التفحص الأعمق للأشكال ولعبة التجريد، بينما تركت للإشكالية الثالثة التي ما زالت تعمل عليها حتى اليوم، البعد الرابع الذي يتمثل في العلاقة بين الحركة والطاقة الحيوية. واللافت للانتباه أنها استطاعت أن تُجيب عن الإشكالية الثانية في سبعينيات



لوحتها، وهي قامت بتعليق مجموعة أوراق مستطيلة الشكل على جدار مرسومها، علاوة على لصق قماش غير مشدود في عدة زوايا. وجرى ذلك كله في سنة ١٩٨٥، قبل أن تُدعى إلى هاواي حيث نفّذت العمل المركّب إياه الذي يعكس العلاقة بين الشكل والطاقة الحيوية.

وتعترف سامية حلبي بأنها تعلمت كثيراً بفضل التدريس، وخصوصاً في هاواي، وأدركت أن هناك استقبلاً جيداً لعمل التجريد لدى الطلاب. وهي ترى أن اللوحة لا تحتاج إلى لغة مكتوبة لشرحها، لأن لغة الألوان هي لغة بصرية لا تتطلب ترجمة. "لا يمكن أن نتلمس معنى اللوحة من معرفتنا للأشياء وتعددها ثم البوح بحكاية. لسنا بحاجة إلى ترجمة الألوان إلى لغة مكتوبة. نكتشف جوهر اللوحة من طريق التأمل فيها."

تخرج من معرض سامية حلبي العملاقة، حاملاً مجموعة كبيرة من التساؤلات بشأن معنى الفن في زمننا الراهن. وقبل ذلك تشعر بأن أعمال الرسامة تدفعك إلى التعمق في تاريخ الفن، وخصوصاً ضرورة تدريس نظرية الألوان. كما يتبادر إلى ذهنك أنها تنبّهك إلى كونها قادمة من عالم آخر هو الحداثة المطلقة، وإن كانت في الوقت نفسه قريبة جداً من عالمنا، لأنها تريدك أن ترى فلسطين في أعمالها. ■

انتقلت الفنانة إلى معالجة لونية للأشكال المربعة على مجمل سطح اللوحة، مستخدمة السكين في المعالجة بدلاً من الفرشاة، وذلك لتظهير الكثافة اللونية وإبراز طبيعة الشكل المكوّن من ٤ أضلاع.

وكانت سامية حلبي في منتصف سبعينيات القرن الماضي، تسعى لأن تكون لوحاتها الفنية مثل ورق الشجر في الخريف. وقد لاحظت من خلال المراقبة الدقيقة أن الورقة تنمو عبر مساحة مستطيلة مفتوحة الزاوية، ومن هنا نفهم اعتناقها أسلوب الشكل المستطيل المفتوح الزاوية في لوحاتها، وإنتاج مجموعة من اللوحات تلتقط ديناميات الكتل المدينية.

والمعروف أن غياب الظل في التجريد يسمح للشكل بأن ينمو من دون عوائق، مثلما يحدث في عملية التطور في الطبيعة. وفي معالجة الفنان الروسي ماليفيتش لمفهوم التجريد، اعتراف بأن أجمل الأشكال هي الأكثر اقتصاداً، وأن الشكل الجديد هو نتاج التقاطع بين الخط والشكل. وهنا تلتقي سامية حلبي مع ماليفيتش في هذه المعالجة الخلاقة.

وإذا عدنا إلى الإشكالية الثالثة لسامية حلبي، فسنتكشف أن ولادة البعد الرابع في عملها كانت نتيجة تعدد الضربات اللونية والخطوط من دون مستطيل واحد. وقد أرادت من ذلك أن يشارك المشاهد في ولادة

